تلقي البنيوية السردية في النقد الجزائري

قراءة في كتاب "في معرفة النص الروائي" لمحمد ساري

الطالبة الباحثة: إلهام بن مايسة
إشراف الدكتور: نهاري شريف

مخبر الخطاب الحجاجي
مخبر الخطاب الحجاجي

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر
جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

الملخص إن من بين التجارب النقدية التي استطاعت فرض حضورها في ظل التصورات الفلسفية التي أنتجتها الحداثة الغربية، تجربة النقد البنيوي للرواية بشقيه الشكلاني والتكويني، من ثم اتخذ النقد الروائي في الجزائر طريقه نحو الممارسة الفعلية حيث سكن هاجس التنظير والتحليل البحث في القضايا النقدية، فنادرا ما توجد دراسة تطبيقية محضة تتجاوز النشأة التطورية للمنهج أو تحرر كاهل البحث العلمي المثقل من التعريفات والمقولات. يسعى هذا المقال إلى البحث في تلقي النقد الجزائري للبنيوية السردية من خلال تجربة محمد ساري النقدية والوقوف على إسهاماته في إثراء النقد الروائي في الجزائر.

الكلمات المفتاحية: النقد الروائي؛ النقد الجزائري؛ البنيوية؛ البنيوية التكوينية.

Receiving the Narrative Structuralism in the Algerian Criticism,
Reading in the book "in the knowledge of the novel text" by Mohammed Sari

Abstract:

Among the critical experiences that marked their presence, the experience of structural criticism of the novel, then the novelist criticism in Algeria found the way to actual practice where the obsession of theory and analysis took place in the critical issues. This article aims to examine the reception of Algerian criticism of the narrative structure through Mohamed Sari criticism experience and to recognize his contributions in enriching the literary criticism

Key words: novelist criticism ; Algerian criticism ; structural ; narrative structure

تاريخ إيداع البحث: 03 فبراير 2019.
تاريخ قبول البحث: 08 جوان 2019.

مقدمة:

عرف النقد الأدبي في الجزائر مع مطلع الثمانينيات موجة انقلاب وتحول مست معطياته الفلسفية على مستوى الأسس النظرية وإجراءات التطبيق، إذ نهل من المد النقدي الذي اكتسح أوربا مع مشارف الستينيات من القرن العشرين وما انبثق عنه من اتجاهات متشعبة لعل أبرزها "مدرسة النقد الجديد" التي كان من بواكيرها المنهج البنيوي. ما أدى بالنقد الجزائري إلى تجاوز الاتجاهات النقدية السائدة قبلا وما لازمها من تحليل مضموني وموضوعاتي والتي كشفت عن قصورها في تناول الأثر الأدبي، لينتهج طريقه نحو تبني المناهج النقدية الجديدة المتولدة عن البعث اللساني الذي يجعل من النص المغيب في الدراسات السياقية الخارج نصية بؤرة اهتمامه وأولى أولوياته، يبحث في أدبيته ويكشف عن بنياته، مراعيا فيه الجانب الجمالي وبناء الشكل الفني.

النقد الجزائري وبداية الانفتاح على النقد الجديد:

شهدت أوربا بظهور النظريات اللسانية التي أسس لها العالم السويسري (فرديناند دوسوسير)[1] ومن بعدها العالم بأسره_ حركية جديدة وتحولا فكريا وفلسفيا أفضى إلى تغيير نمط التعامل مع النص الأدبي، كما أرست قواعد البحث عن نظرية تهدف إلى الكشف عن أغواره بعيدا عن المؤثرات الخارجية المصاحبة لفعل خلقه، فكانت الانطلاقة على يد الشكلانيين الروس، إذ هيأت مقولاتهم الداعية إلى البحث في أدبية الأدب والقوانين العامة التي تحكم العمل الأدبي الجو المناسب لميلاد البنيوية كون "المنهج الشكلي موجود في أصل اللسانيات البنيوية"[2]، لتتبلور لاحقا مفاهيمها من خلال جهود "حلقة موسكو اللغوية" و"جمعية دراسة اللغة الشعرية"، إضافة إلى إسهامات كل من "حلقة براغ اللغوية" و"حلقة كوبنهاجن"، فاستفادت من معطيات علم اللسان الحديث وقضايا اللغة، لتعرف مزيدا من التوسع والانتشار بتشكيل "حلقة نيويورك" بأمريكا، ثم يلمع بريق النقد من جديد في فرنسا، حيث ازدهر في ستينيات القرن الماضي مع الجهود الرائدة لجماعة (تيل كيل) (tel quel) التي تنتسب إلى المجلة التي تحمل اسمها والتي أسسها الناقد الروائي فيليب صولر سنة 1960 وضمت عصبة من رموز النقد الفرنسي الجديد على غرار جوليا كريستيفا، رولان بارث، جاك دريدا.. [3]وغيرهم، فأسهمت في إثراء الدراسات الأدبية من خلال البحث في حقول معرفية شتى شملت التحليل النفسي، الماركسية، اللسانيات وغيرها.

تأخر الفتح البنيوي في الجزائر إلى مطلع الثمانينات، وهو ما يؤكده (شربيط أحمد شربيط) في قراءته الإحصائية ل "النص النقدي الجزائري من الانطباعية إلى التفكيكية" حيث

أرخ للحداثة النقدية في الجزائر بسنة 1983 [4] تاريخ صدور كتاب "النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟" لـ (عبد الملك مرتاض) الذي شن هجوما حادا على النقاد المتأخرين في تبني هذا الطرح الجديد بقوله: "ألفينا بعض النقاد الجزائريين لا يستحي من الباطل أن يدعو جهارا إلى تبني في جامعتنا اليوم، وفي أواخر القرن العشرين، بعض المناهج التي كانت سائدة في أوربا منذ قرن أو أكثر من قرن، ولم يعد اليوم أحد من النقاد الحقيقيين يتقبلها في أي شكل من أشكالها."[5] ومن ثم كان له السبق في الانتقال بالنقد إلى مرحلة جديدة شكل النص فيها المحور والأساس وفيه انصبت كل الاجتهادات والدراسات. لتليه جهود بنيوية أخرى ل (عمر مهيبل) في كتابه "البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر" و(الزاوي بغورة) في كتابه "المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات" سنة 2001[6]...

أسفرت حركة النقد في الجزائر عن ظهور جيل جديد من النقاد ساعين للتحكم في فلسفات المدارس النقدية ومناهجها ومحاولة استثمارها في مقاربة النصوص الأدبية، ويعد محمد ساري من الأوائل الذين رفعوا لواء الحداثة النقدية في الجزائر من خلال مقالات ضمنها طرحه لموضوع الأدب الواقعي والاجتماعي عند رواد الفكر الماركسي كل من جورج لوكاتش ولوسيان غولدمان وهي المقالات التي جمعها في كتابه الأول في النقد "البحث عن النقد الأدبي الجديد" الصادر في بيروت سنة 1984عن دار الحداثة. حيث كان شغوفا بالحداثة والدراسات النقدية الجديدة، وقد أسهم كونه خريج جامعة السوربون بفرنسا تخصص بنيوية تكوينية وسيميائيات، في تحكمه في آليات اشتغال المنهج في أصوله الغربية ما جعله مصراً على نقل تلك المعارف النقدية إلى اللغة العربية[7]، إسهاما منه في إنارة الوعي النقدي الجزائري وتطعيمه بمستجدات البحث الغربي.

النقد البنيوي للرواية في الجزائر وإشكالية تطبيق المنهج:

نال نقد الرواية في الجزائر الحظ الأوفر من الدراسات النقدية التي ازدهرت مع مطلع القرن العشرين، حيث عرف العالم موجة تجديد وتحديث أفرزتها عجلة الحداثة بما أسفرت عنه من مناهج نقدية جديدة، كانت نتاج أطروحات فلسفية ونظريات علمية عملت على مقاربة النص الأدبي في ذاته، موغلة في ثناياه، كاشفة عن بنياته، متجاوزة ظروف إنتاجه، فكان النقد الروائي بالجزائر مواكبا لهذا التحول الجذري الذي عصف بأصول النقد الأدبي، وسمح له بالانفتاح على هذا الحدث الجديد الذي فرض أحقيته في مقاربة النصوص الإبداعية بم أتيحت له من أدوات إجرائية قادرة على الكشف على جمالياته ومن ثم أدبيته.

أصبح المنجز النقدي في الجزائر _ وعلى غرار نظيره العربي _ رهين تلق لمناهج جديدة تضاربت مشاربها، فوقف أمام خيارين إما التطبيق الحرفي الصارم الذي لا يراعي طبيعة النص العربي، إذ كان "ما يجري في ساحة النقد الأدبي العربي حتى نهاية الثمانينات إزاء هذه الاتجاهات هو أقرب إلى "التلقف" السريع غير الناجز منه إلى التمثل والوعي الذاتي والصدور عن مواقف متأصلة"[8]، أو التفاعل الواعي الذي يعمل على تكييف إجراءات هذه المناهج الحديثة بما يتناسب والمنجز السردي العربي، من خلال إضافة تعديلات تكسبها من المرونة ما تراعي به خصوصيته، وتخلصه من المعيارية الصارمة التي لا تناسب بيئته الثقافية، وتسهم في الكشف عن جمالياته. إلا أن هذه الرؤيا الجديدة اصطدمت بواقع مخالف حيث تعثرت أمام صعوبة الوعي بالمرجعيات الفلسفية المنتجة لهذه المناهج، وعدم القدرة على استيعاب مبادئها ومقولاتها، واضطراب مصطلحاتها وإشكالية ترجمتها، وتداخلها مع غيرها من المناهج، وعدم اكتمالها، كونها تخضع كل يوم لاجتهادات متبنيه[9]، ما دفع بالعديد من النقاد إلى المزاوجة في ممارساتهم النقدية بين أكثر من منهج نقدي، كما فعل الغذامي في جمعه بين البنيوية والتشريحية، وكمال أبو ديب في جمعه بين البنيوية والتفكيكية، وعبد الملك مرتاض في جمعه بين التفكيكية والسيميائية.

يعد المنجز النقدي البنيوي للرواية بشقيه الشكلاني والتكويني في منشئه الغربي وما حققه من تراكم معرفي فتحا أثرى مجال الدراسات النقدية العربية والجزائرية على حد سواء، فنهل أصحاب التوجه الشكلي من إسهامات جيرار جينت وتودوروف، في حين تبنى مناصرو المنهج البنيوي التكويني أفكار لوكاتش وغولدمان."وغدت معظم الدراسات التي تروم الحداثة النقدية ضاربة بنصيب مع أحد الاتجاهين إما بالاحتفاء أو بمحاولة التجاوز. في حين أن استدعاء هاته النظريات والآليات لا يراعى فيها البعد الفلسفي ولا الأطر المعرفية التي أنتجتها ما خلق حالة تأرجح بين التطبيق الآلي والانبهار البعيد عن كل وعي بطبيعة المنهج ولا دراية بأسسه المرجعية"[10]. إذ سكن هاجس التنظير البحث في القضايا النقدية على حساب الدراسات التطبيقية، وحاصرته متاهة اضطراب المصطلح، تعدده وتداخله، فقلما نجد دراسة تطبيقية محضة تتجاوز النشأة التطورية للمنهج، ما يجعل البحث العلمي أسير المقاربة التاريخية، مثقلا بكم التعريفات والمقولات، بدل الوقوف على قضايا النص الأدبي والكشف عن تجلياته من خلال التطبيق المنهجي الواعي.

ولئن كانت الرواية جنسا أدبيا أكثر تطورا بانفتاحه على مختلف الأنواع الأدبية، قد أسالت الكثير من الحبر، أغرت الكتاب واستقطبت اهتمام المؤلفين فلكونها من منظور محمد ساري أيضا " الشكل الأدبي الأكثر تمثيلا للإنسان الحديث والمعاصر"[11]، فخلَّف هذا الإقبال

على الكتابة الروائية كمًّا من النصوص التي عرفت تحولات مهمة مست الشكل الأدبي كما المضمون تماشيا وروح العصر، وقد "أغرى هذا التطور المبهر النقد الأدبي، فتسارع إلى استحداث الإجراءات المنهجية في محاولات متكررة لفك خيوط هذا الثراء التقني واللغوي فلا غرابة أن نجد أكثر جهود النقد الأدبي المعاصر منصبة على النصوص الروائية"[12] فتنوعت المناهج النقدية بين بنيوية سردية، وأخرى سيميائية، إلى جانب كل من التداولية، الأسلوبية، التأويلية وغيرها، إذ أخذت على عاتقها مسؤولية مقاربة الخطاب الروائي من خلال التعرض لمستويات النص قصد الكشف عن البنيات الداخلية بالتركيز على الدراسة التحليلية فتضيء فيه الجوانب الشكلية، الفنية والجمالية.

اقتحمت البنيوية بوصفها منهجا نقديا مجال الدراسات البحثية الأكاديمية بغية مقاربة النصوص الشعرية والسردية على حد سواء، فكانت بداياتها مع مقاربة (عبد الملك مرتاض) للألغاز الشعبية، و(عبد الحميد بورايو) للقصص الشعبي، و(سعيد بوطاجين) للقصة والرواية، (محمد ساري) والكشف عن البنيوية السردية بنوعيها الشكلاني والتكويني في (في معرفة النص الروائي) وقد تنوعت هاته الدراسات التي شكلت اللبنة الأولى بين التأسيس للمنهج من خلال تقريب المفهوم النظري وبين التناول التطبيقي قصد التحليل وتمثل الإجراء، لتعرف هذه المقاربات البنيوية _ لاحقا _ طريقها نحو الانتشار والتوسع ما حقق تراكما معتبرا تنوعت مشاربه. لتعرف لاحقا طريقها نوع الانتشار والتوسع ما حقق تراكما معتبرا تنوعت مشاربه. إذ اتسعت لتشمل مجموعة من الباحثين ممن حملوا لواء الحداثة والمعاصرة سعيا منهم لمواكبة المد النقدي الجديد ما يحمله من مستجدات فأثروا مجال الدراسات الأكاديمية بما أسهموا به من أبحاث وأطروحات ورسائل جامعية، ناهيك عن الأعمال النقدية المطبوعة أو المنشورة على صفحات المجلات والجرائد أو تلك التي تحتضنها الملتقيات والمؤتمرات، ما جعل المنجز النقدي الجزائري يحظى بمكانة مهمة على المستوى المحلي والعربي لم اتسم به من الجدية والعمل على تأصيل ممارسة نقدية تتسم بالوعي والجدية

المنهج البنيوي من منظور محمد ساري:

يعد انصراف محمد ساري في أعماله النقدية نحو المنهج البنيوي توجها حكمته تزامنية هذه الأبحاث مع المد البنيوي الذي غزا مجالات الحياة الغربية، وتبنته الدراسات الأدبية سعيا منها إلى عزل النسق عن كل مؤثر خارجي، فكان لزاما عليه التعريف بهذا الوافد الجديد، ونقل مفاهيمه وإجراءاته ورصد تمظهراته وآليات اشتغاله، كونه من الأوائل الذي نادوا بوجوب تجاوز النظرة الخارج نصية ومقاربة النص من الداخل ذلك أن " البنيوية الأدبية في جوهرها

تركز على أدبية الأدب lattérarité وليس على وظيفة الأدباء معنى الأدب. أو معنى النص. أي الناقد البنيوي يهتم في المقام الأول بتحديد الخصائص التي تجعل الأدب أدبا"[13] فكان مؤلفه (في معرفة النص الروائي) نقطة ارتكاز لكل دارس يبحث في حداثة النقد الأدبي ويروم الوقوف على أصول البنيوية السردية ومفاهيمها حيث جمع بين التعريف بالاتجاه الشكلي للنقد الروائي وبين الاتجاه التكويني.

حرص محمد ساري في (في معرفة النص الروائي) والذي اخترته نموذج دراسة على الوقوف على المنجز النقدي الغربي وتقديمه للباحث العربي والجزائري على وجه الخصوص بكل أمانة، فرصد التحولات والمتغيرات التي مست جوهره، ونقل مختلف وجهات النظر والرؤى التي أثيرت حول المنهج البنيوي الذي لم يرس على تعريف موحد، فتعددت مقولاته وإن لم تخرج عن المفهوم العام الذي أسس له فرديناند دوسوسير حيث يعتبر البنية ترابطا داخليا بين الوحدات التي تشكل نسقا لغويا[14]، ومن ثم كانت دعوة محمد ساري الباحثَ في المنهج البنيوي إلى" أن يدرس علاقات الوحدات والبنى الصغرى بعضها ببعض داخل النص في محاولة للوصول إلى تحديد للنظام أو البناء الكلي الذي يجعل النص موضوع الدراسة أدبا"[15]، فالبنيوية بوصفها منهجا فكريا وأداة تحليل تقوم على فكرة الكلية أو المجموع المنتظم، فتبحث في العلاقات التي تحكم بنيات النص بوصفه نسقا.

عمد محمد ساري في ذات السياق الإشارة بوضوح إلى وجوب تجاوز النقد السياقي الذي يتيح للناقد حرية فرض ذاتيته أثناء تحليله النص الأدبي، فتجده يرتكن إلى مسوغات خارج أدبية، تخلقها توجهاته ومرجعياته الفلسفية والفكرية ومن ثم يغدو" الحديث عن العلاقة بين النقد والأدب تتحكم فيه الأهواء والإيديولوجيات، أكثر مما تتحكم فيه الموضوعية والحرص الصادق على معرفة مكنونات النص الأدبي فتختلف باختلاف شخصية الناقد ومواقفه الإيديولوجية وباختلاف الفترات التاريخية وإن النص في هذه الحالة لا يدرج في نسقه هو بل في نسق الناقد الذي يبحث في داخله عن عناصر ترضي منهجه وإيديولوجيته أكثر مما يبحث عن العناصر المكونة لهذا النص"[16] ولئن كانت هذه من عيوب ومآخذ المناهج السياقية التي ترتهن إلى الخارج النصي عند محمد ساري، فإنه أيضا يقف على قصور المنهج البنيوي الذي وصفه بالغموض والإبهام والمراوغة، مستشهدا بآراء (إديت كروزيل) في "عصر البنيوية" و(ميشيل ريفاتير)، لكون " دراسة الشكل الأدبي وحده دون مضمونه يفرغه من الحياة (...) فبرغم استقلالية البناء اللغوي للنص فإننا لا نستطيع أن نفصله فصلا كاملا عن البنى التحتية التي تشكل الثقافة ووعي الكاتب"[17] وهو ما جعل البنيويين يخفقون في تحقيق المعنى الذي كان نتيجة إسهابهم في التعامل مع وحدات مفرغة من الدلالة.

كشفت المقاربات البنيوية للنصوص عن عجز في الإحاطة بالظاهرة الأدبية سببه المغالاة في الجانب الوصفي الصوري وإلغاء القيمة الأدبية فلا تكاد تميز بين الجيد والرديء. ويجد محمد ساري أن من بين " الانتقادات الكبرى الموجهة إلى النقد البنيوي يتمثل في تناول النص مستقلا عن ظروف إنتاجه، وبما أن المعنى مرتبط دوما بالمحيط الخارجي للكاتب والنص، فقد انصب اهتمام النقاد البنيويين على نسق النص الذي يتشكل من بنى صغرى وهي بالضرورة بنيوية، شكلية دون معنى"[18] ولعله السبب الذي دفع به منذ البداية إلى تبني المنهج البنيوي التكويني الذي يتيح له مقاربة الأعمال الأدبية في ارتباطها بالبنيات المجتمعية انطلاقا من كون "كل سوسيولوجيا للفكر تقبل بوجود تأثير للحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبي"[19] فجاءت مؤلفاته اللاحقة (محنة الكتابة) و(الأدب والمجتمع) تحمل رؤيا العالم المنبثقة من صميم الأعمال الأدبية في ارتباطها بالبنيات المجتمعية.

البنيوية السردية عند محمد ساري قراءة في المنجز الغربي:

عرفت نظريات السرد تطورا مهما منذ بروز الشكلانية الروسية حتى عصرنا الحالي، فتعددت المقاربات والاتجاهات بتعدد الجذور المعرفية والخلفيات الفلسفية، وقد أسهمت البنيوية اللسانية في إيجاد الأدوات المنهجية لدراسة المحكيات وأرست الدعامة الأولى للنقد البنيوي للسرد. ف" خصائص البنيوية تكاد تكون هي خصائص النص السردي فهو لا يتصف فقط بالكلية، إنما يقوم على أساس مجموعة من التحولات المستمرة التي لا تنتهي إلا بانتهائه وإن هاته التحولات تخضع بلا شك إلى نوع من التنظيم الذاتي الذي يؤهل النص ليكون نصا سرديا"[20] إذ يتمحور هدف السردية حسب محمد ساري الذي جعل النص الروائي محط اهتمامه بوصفه الجنس الأدبي الأكثر حداثة، والأكثر محاكاة للواقع، في الكشف عن المبادئ العامة في الأعمال الفردية عوض تأويل الأعمال الفردية انطلاقا من المبادئ العامة.

يستعرض محمد ساري النشأة التاريخية لعلم السرد، مبرزا اتجاهات رواد النقد الأدبي في الغرب وما تضمنته فلسفاتهم من مفاهيم ومقولات تبناها كل اتجاه، والإشارة إلى أبرز الأعلام التي اشتغلت في هذا الحقل النقدي، ليخلص إلى أنه و"بعد دراسات كل من (رولان بارث) و(كلود بريمون) و(جيرار جينت) و(تودوروف) أصبح النقد البنيوي بملامح واضحة خاصة فيما يتعلق بالسرد. وأحسن مثال لذلك ما قدمه جيرار جينت في كتابه: (أشكال 3) "[21] مسفرا عن إلمامه بتطورات الفكر النقدي الغربي وتشربه الواعي لمستجدات الحداثة النقدية وإحاطته بأسس ومقولات ومآخذ كل اتجاه وتيار.

يميز محمد ساري بين اتجاهين نقديين تفرعا عن الدراسات السردية في الستينات[22]، يتعلق الأول بالبنيوية السردية حيث عمد إلى تحديد المقولات العامة للسرد من خلال تحليل نصوص سردية، وإن كانت الدراسات الميدانية بينت ارتباطها بما هو مكتوب وقصورها عن مقاربة المرويات الشفهية. في حين يعتمد الاتجاه الثاني على المنطلق اللساني بوصفه فرعا من فروع السيميولوجيا. ومن ثمة كانت السيميائية السردية منهجا يتناول جميع السرود المكتوبة والمرويات الشفهية بل وكل ما يندرج تحت غطاء السرد وفق تحديد رولان بارث[23] سواء كان مكتوبا أو شفويا، بصريا متحركا كان أو ثابتا.

يختم محمد ساري دراسته المستفيضة لنشأة علم السرد في ارتباطه بالمنهج بالبنيوي، واستعراضه لمختلف المحطات التي شكلت منعرجات حاسمة في تاريخ الفكر النقدي من خلال توليها مقاربة النصوص السردية في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، بعرض جملة من الملاحظات المهمة[24] التي تشكل مرجعا موجزا للباحثين قصد الوقوف على أهم تلك المراحل مبينا إيجابياتها وسلبياتها، نحاول إيجازها في النقاط التالية:

_ اعتبار البنيوية السردية الفرنسية امتدادا للشكلانية الروسية حيث تم الحفاظ على جوهر الأبحاث والمنطلقات، فما الشكلية في حقيقة الأمر إلا بنيوية مبكرة.

_ تركيز الدارسين على العناصر الشكلية للسرد سواء في الحكاية الشعبية مثلما فصلها فلاديمير بروب (وظائف وشخصيات) أو في أشكال سردية أكثر تطورا على غرار الرواية مثلما فعل جيرار جينت.

_ نجاح البنيوية في تحديد تعريف دقيق للسرد الأدبي وبلورة نظرية شكلانية للسرد وذلك باستخراج كل العناصر البنيوية المكونة للسرد عبر العصور.

_ تمكن البنيوية من حل إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية فقسمت الأدب إلى جنسين كبيرين هما السرد والخطاب[25]. يضم السرد كل أشكال الحكي. فيما يضم الخطاب الأنواع الأخرى من التعبير التي لا تعتمد أساسا على الحكي.

يرصد محمد ساري في ختام تناوله للنشأة التطورية والتاريخية للمنهج البنيوي الذي انتهى بالبنيويين _حسب قوله_ إلى طريق مسدود[26] بعد طول بحث وتجريب، جملة من الانتقادات والمآخذ، تمثلت في تناوله _أي المنهج البنيوي_ النص الأدبي مستقلا عن ظروف إنتاجه، وعزله المعنى المرتبط دوما بالمحيط الخارجي للكاتب والنص، إضافة إلى فشله في الإجابة على كل تساؤلات الباحثين حول أدبية الأدب ومدلولاته المتعددة.

محمد ساري بين التوجه الشكلي والطرح البنيوي التكويني للرواية:

يبحث محمد ساري في الإجابة عن أسئلة أدبية الأدب في المنهج البنيوي من خلال مقارنة دراستين نقديتين مختلفتين تناولتا الأعمال الروائية ل (آلان روب غرييي) قام بها كل من رولان بارث ولوسيان غولدمان حيث " ينطلق رولان بارث من استقراء النص الأدبي كبناء لغوي يبدع واقعا مستقلا، لا ينبغي البحث عنه إلا داخل النص. ويجاريه في ذلك لوسيان غولدمان، حيث ينطلق هو أيضا من النص. ولكنه يتجاوز ذلك بخطة منهجية تتمثل في إدراج النص المدروس في بناء أشمل يساعده على الانتقال من النص إلى الواقع الاجتماعي الذي أنتج النص وهو منهج يساعد في فهم القانون الاجتماعي داخل النص الأدبي، دون إهمال الجوانب الجمالية والشكلية"[27] ومن ثمة كان هدف محمد ساري مسطرا لغاية محددة هدفها المقارنة بين التناول البنيوي الشكلي للنص السردي وبين طرح المنهج البنيوي التكويني.

الاتجاه الشكلاني في نقد الرواية عند بارث:

يتطرق محمد ساري إلى أهم القضايا التي تناولها رولان بارث في مقاربته لروايات (آلان روب غرييي) الذي يعد "كاتب منارة للرواية الجديدة التي كان هدفها تجديد الرواية، والتخلي عن الهم الواقعي، بوضع الشخصيات في البعد الثاني لصالح الأشياء والأماكن"[28]. فيجدها استقراء يتناول البناء اللغوي للنصوص، وعل هذا الحكم نابع من كون هاته القراءة تناولت الشكل ولم تبحث في المضمون الذي يراهن عليه محمد ساري في إنتاج الدلالة، وتجدر الإشارة إلى أن رولان بارث" بنيوي فرنسي...ورغم أن أعظم معجبي بارث قد يصرون على أن البنيوية كانت مجرد محطة في مسيرته المهنية المتنوعة (...) فإنها أهم محطاته على الإطلاق"[29] إلا أن محمد ساري اختار من بين كل تلك المحطات القضية النقدية التي تدعم مقصديته في إبراز قصور المنهج البنيوي الشكلي بشكل جلي من خلال مقاربة روايات (آلان روب غرييي) ذات التوجه الإبداعي الفريد.

عمد بارث إلى تقسيم أعمال (ألان روب غرييي) وفق صورتين، الأولى والتي سماها التشيؤ[30] التزم فيها إظهار الجوانب الشكلية حيث "الأشياء المصورة لذاتها، مجردة من المعنى ومن بعدها الإنساني"[31]. فلا تحمل أي معنى ولا تعبر عن أي دلالة إذ يفرغ الروائي الأشياء من دلالتها النفسية بالتركيز على وصف أشكالها الهندسية فيلغي "التضامن القائم بين الإنسان والأشياء"[32]، فالمعروف عن الروائي (آلان روب غرييي) ولعه الكبير بالوصف الدقيق الذي ينتهي إلى أدق التفاصيل لكل ما يرتبط بالديكور والأشياء وهو وصف" بعيد عن الشحنة الانفعالية التي تسم إدراك الوعي لها، فتبدو حيادية على العكس، ومجردة من كل دلالة أخلاقية أو

شعورية، وهذا ما يعطي معنى جديدا لكلمة واقعية في الأدب"[33] وهو إذ يتعمد ذلك فليحملها مادة خاما، كما يراها الكاتب، مجردة من كل ذاتية قد تؤثر على استقبال القارئ أو تثيير عاطفته حيالها.

أما الحالة الثانية وهي الصورة الغير مشيأة فيؤدي بها التكرار إلى أن "تتحول إلى ركائز لحالات انفعالية"[34] فآلان روب غرييي حاول عبر رواياته قتل المعنى بطريقة مباشرة بحيث لا يترشح من نصوصه سوى الاندهاش والتعجب. إلا أن مقاربة رولان بارث للتشيؤ في هاته الأعمال الروائية، جعلته ينتهي حسب محمد ساري إلى طرح الأسئلة حول جوهر الفن ووظيفته، والهدف من الكتابة الأدبية، وهل تاريخ الأدب، هو تاريخ تطور لشكله فقط: كونه الوحيد الذي يطاله التغير؟ [35]دون البحث وتكبد عناء للوصول إلى إجابات مقنعة لها، مما يفسر قصور المنهج الشكلي في مقاربة النص الروائي، ينضاف إلى ذلك عدم تطرق رولان بارث لمضامين النصوص الروائية التي تناولها موضوع دراسة، كونها ترتبط بالمحيط الخارجي وتتعدى حدود النسق المغلق للنص الذي تتبناه البنيوية الشكلية.

التوجه البنيوي التكويني في الرواية عند غولدمان:

يستند محمد ساري على توجه لوسيان غولدمان رائد المنهج البنيوي التكويني الذي يرى أن" بنيات عالم العمل الأدبي مماثلة للبنيات العقلية لبعض المجموعات الاجتماعية"[36] كما يعتبر الأدب" تعبيرا عن رؤية للعالم، وعن طريقة النظر والإحساس بكون ملموس مشتمل على كائنات وأشياء، والكاتب يعثر على شكل ملائم ليخلق ويعبر عن هذا الكون (العالم) "[37]، ومن خلال مقاربته روايات (آلان روب غرييي)، وفي محاولة منه تبيان الوجه الآخر للمنهج البنيوي الذي يتجاوز حدود الشكل لينفتح على البنى الاجتماعية خاصة وأن " رواد الرواية الجديدة يعبرون بالضرورة عن معاني المجتمع الجديد ولكنهم يفعلون ذلك بتقنيات روائية مغايرة عن تقنيات الرواية الكلاسيكية" [38] على غرار كلود سيمون، ميشال بيتور، نتالي صاروت وغيرهم. كما أن معظم الذين درسوا الرواية الجديدة، تناولوا قضية الشكل الروائي وأسبغوا عليها عدة تأويلات. أما غولدمان فيتوجه نحو تحليل المضمون لإنارة الجوانب الشكلية للعمل الروائي.

يتعرض لوسيان غولدمان لقضية التشيؤ في كتابات (آلان روب غرييي) "على الرغم من أنها وجدت لدى فلاسفة القرن العشرين أمثال نيتشه وسارتر، إلا أن لوكاش هو الذي طوّرها وعمّقها في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) حيث ربط بين التشيّؤ والواقع الاقتصادي الرأسمالي"[39] وهي القضية التي اختصها محمد ساري لملامسة أوجه التقارب والاختلاف بين المنهجين الشكلي والتكويني في ذات العمل الروائي، فيجد أن لوسيان غولدمان قد تناول ظاهرة

التشيؤ بمزيد من التوضيح إلا أنه سرعان ما أدرك عدم جدوى ربطها بالنسق اللغوي الذي جعل الدراسة تدور في حلقة مفرغة[40] فاتجه نحو الواقع الاجتماعي ذلك أن " سوسيولوجيا الرواية بفرعيها (البنيوية التكوينية والسوسيونقدية)، قد صبت جل اهتماماتها حول دلالات الرواية والعلاقة بينها وبين الشكل، فتوصلت بدورها إلى نتائج جد ثرية للبحث النقدي كما للرواية"[41] ما أتاح للوسيان غولدمان فرصة الخوض بإستفاضة في إيضاح الأسباب المعلنة والمضمرة التي أنتجت ظاهرة التشيؤ ما أتاح له مجال مقاربتها انطلاقا من كونها نتاجا وانعكاسا للتحول الذي عرفته البنى المجتمعية والاقتصادية ومن ثم البنى الذهنية.

يخلص محمد ساري في ختام مقاربته للطرحين الشكلاني والتكويني، وبناء على المقارنة بين دراستي رولان بارث ولوسيان غولدمان اللتين تناولتا روايات (آلان روب غرييي)، أن المنهج البنيوي الشكلي منهج ناقص كونه يعزل العمل الأدبي عن الوسط الاجتماعي الذي نتج عنه فالبنيوية "عملت ضد النزعة الطبيعية وضد الإنسانية بشكل عام"[42]، إذ لا تكمن جمالية الأدب في زخرفته الشكلية، ولا في كونه وثيقة اجتماعية أو تأريخية إنما " الأدب هو تعبير جمالي وفني عن الإنسان وعن الحياة الإنسانية في معناها الشامل. والناقد إذ يدرس النص الأدبي، إنما يبحث عن مظاهر الحياة وعن كيفية التعبير الجمالي عنها. بذلك يبتعد الدارس من الوقوع في الشكلانية الاصطناعية المتعسفة التي لا ترى في النص الأدبي إلا أشكالا هندسية مجردة من المعنى، وكذا الشرح التقريري الذي ينظر إلى الأدب كوثيقة اجتماعية أو تاريخية، مجردة من أدبيته وعناصره الجمالية التي تمنح له متعة القراءة والخلود"[43] فيستنكر محمد ساري غلو الشكلانية في المعيارية وانغلاقها على نفسها، كما يرفض أن يصبح الأدب مادة لتأريخ الأحداث والوقائع أو ذا وظيفة إصلاحية في المجتمع، ويكشف عن ميله واختياره المنهج البنيوي التكويني الذي ينطلق من النص للبحث في الظواهر الاجتماعية لا العكس، فالأدب بالنسبة له تعبير عن رؤيا فنية وجمالية تحمل روح العالم.

خاتمة:

عرفت السرديات بوصفها العلم الذي يتناول جل أنواع المحكيات تطورا مهما ومتشعبا غذته شتى المناهج والاتجاهات النقدية، ونال استقطاب الكثير من المهتمين والدارسين، وأسال حبر الرواد من النقاد، ولا يزال البحث مستمرا قصد الوصول إلى إجابات شافية تحيط بوظيفة الإبداع الأدبي في ظل التطورات الراهنة للتركيبة الفكرية والمنظومة العلمية التي تخيم بظلالها على الحياة الثقافية، الاقتصادية، والاجتماعية. ولئن قدم المنجز الغربي طروحات تفاوتت في أسسها ومقولاتها واختلفت بين إيجابياتها وسلبياتها، فإن النقد العربي بصفة عامة

والجزائري على وجه التحديد، ظل يراوح مكانه منتظرا ما تجود به الفلسفات الغربية التي تلقى إجراءاتها النظرية حفاوة استقبال، سرعان ما يأفل بريقها أمام صعوبة التطبيق الحرفي على النصوص العربية، والعجز عن تكييفها بما يناسب خصوصية الطابع العربي للأدب أو تجاوزها والإتيان بجديد متفرد ينافس الطرح الغربي.

ما جعلنا نلامس في قراءتنا لكتاب (في معرفة النص الروائي) ل محمد ساري عدم إخفاء صاحبه ولعه بالمعطى الغربي، حيث كان وفيا للمقولات النقدية البنيوية التي قدمها للباحث الجزائري، مفصحا عن تبنيه المنهج البنيوي التكويني لكونه أكثر ليونة، يتيح له فرصة التحرر من سلطة النسق ليجد لنفسه متنفسا في الجانب الاجتماعي، متخذا منه المنهج الأكثر ملاءمة لمقاربة النص الروائي الذي بدوره يرسم صورة العالم الذي يمثله، إلا أنه لم يتخلص من حرفية التطبيق وهو المتشرب لأفكار غولدمان ولوكاتش، الوفي لمنهجهما الرابط بين البنيات الأدبية ونظيراتها المجتمعية.

مراجع البحث وإحالاته:

1_ ينظر. محمد مشرف خضر. تحولات الفكر النقدي في القرن العشرين. دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع. مصر. ط1. 2013 ص74

2_ تزفيطان تودوروف. نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس تر إبراهيم الخطيب. الشركة المغربية للناشرين المتحدين. الرباط. المغرب. ط1، 1982ص15

3_ ينظر يوسف وغليسي. محاضرات في النقد الأدبي المعاصر، قسنطينة. منشورات جامعة منتوري. 2005_2004. ص 46_47

4_تاوريريت بشير، مناهج النقد الأدبي المعاصر – دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2008 ص49

5- عبد الملك مرتاض. أ ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. ط1. 1992 ص28

6_ تاوريريت بشير، مناهج النقد الأدبي المعاصر – دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيق ص49

7_ ينظر. محمد ساري. النقد يتوجه بالأساس إلى القراء وليس إلى المبدعين. حوار جازية سليماني. مجلة الحوار. 16 جانفي 2013. http: //heoar. blogspot. com/

8_ عبد الله أبو هيف، النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد. منشورات إتحاد الكتاب العرب. دمشق. سوريا. 2000 ط1. ص203

9_ ينظر محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2003. ص9

10_ منصوري مصطفى. سرديات جيرار جينت في النقد العربي الحديث. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط1. 2015 ص433

11- محمد ساري. في معرفة النص الروائي، دار أسامة للطبع والنشر والتوزيع. الجزائر ط1. 2009 ص3

12- المصدر نفسه. ص 3

13_ المصدر السابق. ص 94

14_ ينظر رامان سلان. من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية. مر وتح ماري تريز عبد المسيح. موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي. المجلد لثامن المجلس الأعلى للثقافة. مصر. 2006. ط1. ص21

15_ محمد ساري. في معرفة النص الروائي. ص 94

16_ المصدر نفسه. ص10

17_ المصدر السابق ص97

18_ المصدر السابق نفسه. ص100-101

19_لوسيان غولدان وآخرون. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. تر محمد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربية. لبنان. ط2. 1986. ص 13

20_هادي شعلان البطحاوي. مرجعيات الفكر السردي الحديث. دار الرضوان للنشر والتوزيع. عمان. ط2. 2016 ص56

21_ محمد ساري، في معرفة النص الرائي، ص69

22_ ينظر المصدر نفسه ص72_73

23_ ينظر رولان بارث. مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص. تر منذر عياش. مركز الإنماء الحضاري. حلب. سوريا. ط1 1993 ص25

24_ ينظر محمد ساري. في معرفة النص الروائي ص 93_ 101

25_ ينظر المصدر الساق. ص96

26 _ المصدر السابق. ص 105

27_ المصدر نفسه. ص 105

28_ آلان روب غربيه. المماحي. تر زبيدة القاضي. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. سوريا. 2011 ص5

29- جوناثان كولر. رولان بارث، مقدمة قصيرة جدا. تر سامح سمير فرج. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة. مصر، ط1. 2016 ص 71

30_ وهو مفهوم ظهر في الستينات للدلالة على اختفاء الشخصية وحلول الأشياء محلها

31_ المصدر السابق. ص108

32_ المصدر نفسه. ص109

33 _ آلان روب غربيه. المماحي. تر زبيدة القاضي. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. سوريا. 2011 (كلمة المترجمة) ص6_7

34_ المصدر نفسه. ص 111

35_ ينظر المصدر نفسه. ص112

36_ لوسيان غولدمان. الإله الخفي. تر زبيدة القاضي. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. ط1. 2010. ص12

37_ لوسيان غولدمان وآخرون. البنيوية لتكوينية والنقد الأدبي. ص17

38. _محمد ساري، في معرفة النص الروائي. ص115

39_ محمد عزام. تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2003ص

40_ محمد ساري. في معرفة النص الروائي. ص121

41- المصدر نفسه، ص4

42_ روبرت شولز. البنيوية في الأدب، تر حنا عبود. منشورات إتحاد الكتاب العرب. دمشق. سوريا. ط1. 1984ص214

43_ محمد ساري، في معرفة النص الروائي. ص123.